

جامعة النجف الدينية*

الدكتور فاضل الجمالي

نقله الى العربية: جودت القزويني

مدينة (النجف) المقدسة هي مكان ضريح الامام علي بن ابي طالب (ع) - الخليفة الرابع للمسلمين، والامام الاول للمذهب الشيعي - ومن الاماكن الاسلامية التي تأتي بالمرتبة الرابعة بعد (مكة، المدينة، القدس). يتوافد الزائرون اليها من جميع اماكن العالم الشيعي، وفيها يدفنون امواتهم.

أما مدينة (الكوفة)، موقع مسجد الامام علي (ع)، فهي تبعد عن (النجف) ثلاثة اميال تقريباً. وكانت هذه الحاضرة العاصمة الاسلامية الاولى في العراق،

* المقال بعنوان (THEOLOGICAL COLLEGES OF NAJAF).
نُشرَ في مجلة: (THE WORLD MUSLIM). العدد ٥٠، ١٩٦٠م، من صفحة (١٥ - ٢٢).
* الدكتور فاضل الجمالي رئيس وزراء عراقي اسبق، ومن الشخصيات المثقفة بالتقافتين الشرقية والغربية. يقيم حالياً في تونس.

ولد في الكاظمية (العراق) سنة ١٩٠٣ تخرج من دار المعلمين الابتدائية في بغداد، درس العربية والدين في مدرسة الامام الخالصي في الكاظمية، درس في الجامعة الامريكية في بيروت فنال درجة (بكالوريوس علوم) مع شهادة تدريس، درس في كلية المعلمين بجامعة كوليبيا فحصل على درجة الماجستير ثم دكتور فلسفة، قضى فصلا صيفيا في مدرسة التربية بجامعة شيكاغو. منح وسام الخدمة الممتازة في التعليم من كلية المعلمين بجامعة كوليبيا..

<<

الدكتور فاضل الجمالي ١٠١
والتي عرفت مدرستها اللغوية كمنافس لمدرسة (البصرة).

والنجف بحد ذاتها مركزاً دراسياً شيعياً كبيراً على غرار جامعة (الأزهر) في مصر، و(الزيتونة) في تونس، إلا أن الدراسة العلمية المتقدمة للمذهب الشيعي لها خاصيتها المتميزة عن بقية المذاهب الإسلامية بسبب استمرار مبدأ (الاجتهاد) والذي يعني التوصل إلى درجة علمية عالية تُمكن (المجتهد) من استنباط الأحكام الشرعية من القرآن، السنة (الحديث)، ومن أقوال الرسول (ص)، وأفعاله. وعلى ذلك فإن رأي (المجتهد)، واستنباطه قد يلائم كثيراً التطورات الحاصلة تبعاً لتغير الزمن.

وقد أُلزم الشيعة إتباع آراء (المجتهد) الحي، وعند موته فإنها ستفقد حيويتها وجدتها. أما في جانب المذاهب السنية فإنها اعتادت على إتباع تعاليم الأئمة الأربعة العظام، والقادة المتكلمين الذين عاشوا في العصور الوسطى وهم: (أبو حنيفة، الشافعي، ابن حنبل، مالك). ولم تسجل المذاهب السنية ظهور مجتهد جديد بعد الأئمة الأربعة.

بدأ ممارسة التعليم في الخامسة عشرة من عمره سنة ١٩١٨ ثم درس التربية وعلم النفس في دار المعلمين الابتدائية ثم درس الفلسفة التربوية والتربية الأخلاقية في دار المعلمين العليا. اشغل منصب المدير العام للتربية والتعليم في العراق مدة تزيد على العشر سنوات، حاضر وكتب وألف في التربية والتعليم.

عين مديراً عاماً لوزارة الخارجية العراقية سنة ١٩٤٣ ثم وزيراً للخارجية ثمان مرات، انتخب رئيساً للمجلس النيابي العراقي مرتين، أصبح رئيساً للوزارة العراقية مرتين. ساهم في مؤتمر الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو ووقع على الميثاق باسم العراق، ترأس الوفد العراقي إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في أكبر اجتماعاتها حتى سنة ١٩٥٨. ترأس الوفد العراقي إلى المؤتمر الآسيوي الأفريقي في بانديونغ سنة ١٩٥٥. دافع في المحافل الدولية عن حق الشعوب الآسيوية والأفريقية بالاستقلال. ناضل من أجل استقلال كل من ليبيا والمغرب وتونس والجزائر دافع عن حق عرب فلسطين مستنكراً ما وقع عليهم من ظلم وعدوان.

حكم عليه بالاعدام بعد انهيار النظام الملكي في العراق سنة ١٩٥٨ ثم استبدل حكم الاعدام بالسجن وأفرج عنه ليلة ١٤ تموز ١٩٦١.

قدم إلى تونس سنة ١٩٦٢ للتدريس في الجامعة التونسية وهو لا يزال يدرس فيها. ساهم في مؤتمر العالم الإسلامي المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٩٦٥ وترأس اللجنة الثقافية فيه. إنه يكتب ويحاضر في الشؤون التربوية والعربية الإسلامية.

العدد الجديد - العدد التاسع -

وعلى كل حال فالشيعة دائماً لهم (مجتهدهم) الحي الذي يُفترض ان يتصف - ولو نظرياً - بالتبحر العلمي، والتفكير الاصيل، والفحص الشامل، وتحليل المعطيات الدينية.

وتعتبر (النجف) المركز الرئيس للدراسات الثقافية الشيعية. اما (سامراء) و(كربلاء) و(الكاظمية) فبالرغم من مدارسها الدينية الخاصة بها، فانها بشكل عام لا تقاس اهمية بالنجف.

اما مدينة (قم) الايرانية - والتي هي تحت قيادة المجتهد الكبير السيد البروجردي^(١) - فانها اخذت تحتل مكانة مهمة في الدراسات العقلية لكنها ومع كل ذلك لم تستطع الى الآن مضاهات (النجف) بذلك.

وفي (النجف) ما يقرب من اربعة وعشرين مدرسة دينية اشهرها: مدرسة البروجردي، اليزدي، الآخوند، الهندي، القوام، الصدر، الاحمدية، كاشف الغطاء، المهديّة، كما تضم ما يقرب من الفين طالب من مختلف الجنسيات، واغلبهم من الايرانيين، وان كانت هناك اعداد اخرى من الطلبة العراقيين، والباكستانيين، والهنود، والكشميريين، والافغان، واللبنانيين، والتبت، وطلبة آخرين من منطقة الخليج.

والتركيبة الاحصائية لعدد الطلاب في (النجف) في شهر ديسمبر ١٩٥٧م هي كالآتي:

الطلبة الايرانيون ٨٩٦

الطلبة العراقيون ٣٢٦

الطلبة الباكستانيون ٣٢٤

الطلبة التبت ٢٧٠

الطلبة الهنود ٧١

(١) من كبار الفقهاء توفي سنة (١٣٨٠هـ/١٩٦١م).

الدكتور فاضل الجمالي ١٠٣

الطلبة السوريون واللبنانيون ٤٧

الطلبة البحرانيون والقطيفيون ٢٠

والمجموع الكلي هو (١٩٥٤) طالباً. وهذا العدد يختلف باختلاف فصول السنة، والظروف.

ومنذ ثلاثين عاماً على وجه التقريب كان (كاتب هذه السطور) قد غاص في الدراسة، وطرق التدريس لاظهار تفرد النظام الدراسي في (النجف)، وأهميته، وكان ذلك جزءاً من بحث للدكتوراه يتناول «النظام الدراسي في جامعات النجف» الا ان المقترح تبدل لعنوان آخر حول «ثقافة القبائل البدوية في العراق».

ان معرفتي بالنجف، وبنظامها الدراسي بدأ منذ طفولتي عندما كان المرحوم والدي عالماً هناك، حيث انفق حوالي تسعة عشر عاماً بالدراسة في النجف، ثم بعد ذلك وفي سن الخامسة عشرة بدأت اتشقف بنفس الثقافة ولكن في مدينة (الكاظمية). ومع مرور الوقت ترسخت معتقداتي اننا في (النجف) فملك (منجماً) من المثقفين يجب ان يستكشف ليتعرف عليه العالم ويقدره، ويتبنى بعض مظاهره.

لقد درست اغلب نظم التعليم الجامعي في (الغرب)، وزرت الجامعات (الالمانية)، و(البريطانية)، و(الفرنسية)، وجامعة اكسفورد، وكامبردج، وتلقيت تعليمي في الجامعات (الاميركية)، الا انه ما من جامعة من هذه الجامعات، حتى الجامعات (الالمانية) تستطيع ان تفخر في حرية التعليم بما يضاهاى حرية التعليم، والأصالة اللتين تطبعان شخصية المنتسبين اليها بطابعها المتميز في جامعة (النجف).

والنظام التعليمي العام لا يخضع لنفوذ الدولة، ولا يمول من قبلها، فبالرغم من وجود ٢٤ مدرسة علمية فانه لا توجد هيئة خارجية، او سلطة تسيطر عليها، او تقوم بادارتها، كما لا يوجد (رؤساء)، او عمداء او اساتذة، وانما يستطيع اي فرد مهما كان مستواه الثقافي ان ينظم للمدرسة اذا استطاع ان يجد له مكاناً للاقامة

ما دامت لديه الرغبة في الدراسة، كما ان الوازع الديني، والانضباط النفسي هو القانون الوحيد الذي يدير هذه الجامعات، وينظمها.

ان كل مدرسة من هذه المدارس تتكون - على الاغلب - من باحة مفتوحة تكون على شكل مربع، او مستطيل، وفي وسطها (بُركة) ماء محاطة بالاشجار. كما تحاط هذه (الباحة) المربعة بغرف يسكنها طالب، او طالبان، ويكون الدور الارضي فيها مرتفعاً بما يقرب (المتراً) عن الارض. ويتكون السكن في معظم المدارس من دور واحد؛ والمدرسة الحديثة الوحيدة التي تتكون من دورين هي مدرسة (البروجردي). وقد زرت بعض غرف الطلاب، ولم تكن فيها (اسرة) وكان الطلاب ينامون على قُرش يمدونها فوق (السجاد) و(الحصران). اما تهويتها فتتم اما عن طريق الشبائيك، او عن طريق (المداخن)، وبعضها الآخر لم تكن فيها تهوية الا من خلال الباب. وتحتوي بعض هذه الغرف على تدفئة كهربائية متنقلة، كما ان معظم المدارس تحتوي على (سراديب)، ومخازن تحت الارض يلجأ اليها الطلبة ايام الصيف القائنض. ويصل عمق بعض (سراديب) النجف الى اكثر من طابق واحد، وكلما نزل الشخص الى عمق سرداب، او اثنين او ثلاثة، فان البرودة سوف تزداد بشكل تدريجي حتى انه يحتاج الى ملابس ثقيلة في السرداب الثالث اذا اراد ان يحمي منها.

ويرتدي جميع الروحانيين عادة (عمّة) نصف دائرية كبيرة سوداء او بيضاء، والاولى تدل على ان صاحبها (سيداً) او (هاشمي) في انتسابه، اما (العمّة) البيضاء فانها لا تدل على ذلك.

وبالرغم من ان لكل مدرسة - كما هو معروف - (متعهداً) او (قيماً) فان الطلبة الذين يعيشون في مدرسة واحدة يعتمدون على انفسهم في اعداد الطعام، وتنظيف الملابس ما لم يكن لهم وسائط لتناول الطعام في الخارج، وامكانية دفع اجور غسل الملابس وتنظيفها. كما انهم يحصلون على خبزهم بصورة مجانية من الهيئات التي يبعثها المحسنون الشيعة الى المجتهد الاعظم.

وينفق المجتهد الايراني، الاكبر آية الله البروجردي - المقيم في مدينة (قم) - ما يقرب من ستة آلاف دينار عراقي شهرياً في (النجف) و(كربلاء) و(سامراء) لغرض توفير (الخبز)، ودفع المرتبات الشهرية الى ما يقرب الخمسمائة طالب، حيث تكون حصة كل منهم ما بين دينار ونصف الدينار الى دينارين، وترتفع نسبة المدخول الشهري حتى تصل الى ثلاثين ديناراً لتغطية بعض احتياجات العلماء البارزين (مع ملاحظة ان الدينار العراقي الواحد يقارب دولارين وثمانين سنتاً).

ان اصحاب العوائل من الطلبة الذين يعيشون خارج المدارس يشكلون نصف عدد الطلاب، وهم يترددون اليها لغرض الدراسة والمباحثة، او تسلم المرتبات المالية المخصصة لهم ومع ذلك فهم يعتمدون - في اغلب الاحيان - على المساعدات التي تصلهم من عوائلهم، او من المصادر الخيرية لتغطية احتياجاتهم بشكل كامل. وليس هناك ميزانية محددة، ولا مورد معين لهذه المدارس، فالطلبة يدرسون دون ان يدفعوا اي نفقات، كما ان المدرسين يدرسون دون ان يتلقوا اي مبلغ على ذلك.

واغلب العلماء هم طلبة، ومدرسون في آن واحد، فالمتقدمون منهم ممن يحضر بحوث (المجتهد) يدرسون اولئك الذين هم اقل مرتبة منهم. كما ان هؤلاء يُدرسون الذين لا يزالون اقل من مرتبتهم العلمية، وهكذا. وعلى ذلك فان اي شخص يدرس في (النجف) سيصبح - بعد وقت قصير - تلميذاً واستاذاً في وقت واحد. ولا يوجد وقت محدد للدراسة فرما يمكث الطالب سنين عديدة حسبما تلميه عليه رغبته، او يقضي معظم حياته بالدراسة والتدريس.

ومعدل سني الدراسة العلمية ١٥ عاماً لكن ذلك رقم اعتباطي لهؤلاء الذين لم يُحدّدوا بوقت مُعيّن، وربما رغب الطلاب بالاقامة خمسَ سنين، او عشرة، او خمس عشرة، او عشرين، فليست هناك (امتحانات) يجب تجاوزها. ان (النجف) اشبه ما تكون بـ(نافورة) كبيرة يمكن لاي شخص ان يتقرب اليها، ويَعَبَ منها ما يستطيع من العلم ما دام لديه اهتمام. ولا يطلب من اي شخص عملاً ما لم يرغب هو به، وباختياره.

وتتضمن (الحلقات) الدراسية منهاجاً مقررأ في اللغة، والمنطق، وعلم الكلام (التوحيد) ولكن المواضيع الاخرى - في شكلها القديم الذي يعود الى العصور الوسطى - كالفلسفة، وعلم الهيئة، والرياضيات - يمكن تدريسها ايضاً اذا رغب الطالب بذلك. ويكون الطالب حرأ باستخدام اوقات فراغه لدراسة اي موضوع آخر كتعلم اللغات الاجنبية او الشعر، كما يتمتع بحرية اختيار شريكه وزميله في الدرس، وكذلك اختيار اساتذته من بين الاساتذة وتحديد ساعات الدراسة، ومكانها معهم، والتي تكون اما في المدارس او المساجد، او في بيت الاستاذ نفسه. ويعتبر مسجد (الهندي) واحداً من اكبر المراكز الدراسية والذي يضم (الحلقات) الصغيرة الى جانب المحاضرات الموسعة. فالذين يشكلون (حلقة) دراسية ربما كانوا طالبين فقط، او ثلاثة، او اكثر من اربعة وعشرين طالباً في العدد، ما لم تكن هذه (الحلقة) الدراسية هي حلقة متقدمة تلقى كمحاضرة عامة من على (المنبر).

وفي هذه الاجواء يختلف معدل التقدم العلمي للطالب من شخص الى آخر فالذين باستطاعتهم التحرك سريعاً يمكن ان يتقدموا بحرية، اما اولئك الذين يتحركون ببطء فانهم يسيرون تبعأ لما تملي عليهم خطراتهم، فليس هناك استعجال في الدراسة اذا لم تكن اوقاتهم محددة، كما انهم لا يطالبون بوثيقة امتحان علمية، ومصدقة. وربما يقضي الطالب غير المجد معظم حياته دون ان يخرج احد من المدرسة. اما التفوق العلمي، والنبوغ المبكر فيظهران بصورة طبيعية. واذا حدث ان اشتهر عالم بذلك فانه يبدأ باستقطاب الانظار، ويصبح محطاً لانتباه اولئك الذين يودون مصاحبته، والدراسة على يديه.

وفي الصباح الباكر - (بعد صلاة الفجر، وقبل طلوع الشمس) - تبدأ الدراسة، وتستمر بعد صلاة (المغرب) بساعة واحدة. ويحدد الطلبة اوقاتهم الدراسية مع اساتذتهم الذين اختاروهم، وربما يدرّس اساتذة متعددون الموضوع نفسه في زمان واحد.

الى جانب (الحلقة) الدراسية هناك فترة نقاش، ومناظرة بين الطلبة انفسهم - اذا

الدكتور فاضل الجمالي ١٠٧
كانوا في حلقة دراسية واحدة - حيث يناقشون الدرس الملقى عليهم كمحاضرة يلقيها
واحد منهم يتصرف كما يتصرف (الاستاذ)، ويسأل من قبل زملائه كما يسأل
الاستاذ نفسه.

ويملك الطالب ساعاته الخاصة في تهيئة المواد العلمية، وشحذ ذاكرته وتفكيره
بالشكل الذي يراه ضرورياً.

وتقسم الدراسة في (النجف) الى ثلاث مراحل^(١):

المرحلة الاولى: (مرحلة السطوح)

وتشمل دراسة اللغة العربية، والبلاغة والمنطق ويبدأ الطالب بدراسة كتاب
قواعد العربية المبسط، والذي يسمى (بالأجرومية)، وتنحدر هذه التسمية من كلمة
(القواعد) اليونانية، وعندما ينتهي الطالب منه يبدأ بكتاب اكثر اتساعاً خصص
للمتقدمين ويسمى (القطر)، والذي عُوِّض عنه بكتاب (جامع المقدمات). بعده
ينتقل الى كتاب لقواعد اللغة والذي هو شرح على الف بيت من الشعر لابن
(مالك) اختصر فيها قواعد اللغة. ويسهل عادة حفظ هذه الابيات المتضمنة قواعد
العربية الضرورية، ولا يجد الطالب مشقة في استرجاعها. والكتاب الاخير المتقدم
جدا هو (مُغني اللبيب) حيث يشمل جميع قواعد اللغة العربية المعقدة، والدقيقة.

وبعد انتهاء دراسة القواعد العربية يتحول الطالب الى كتاب (المطول)
للتفتازاني (في علم البلاغة)، وعندما ينتهي منه ينتقل الى علم المنطق حيث يبدأ
بدراسة المنطق الارسطي في كتاب (الحاشية) للملا عبد الله، وتستغرق مرحلة
السطوح عادة سبع سنوات.

(١) في النظام الدراسي تسمى المرحلة الاولى بمرحلة (المقدمات). اما المرحلة الثانية فتسمى
بمرحلة (السطوح)، والثالثة هي مرحلة (البحث الخارج). والتقسيم الذي ذكره الدكتور الجمالي
يختلف عما هو متعارف في تحديد (المصطلحات)، ويتفق في المضمون.

المرحلة الثانية: (مرحلة الفضلاء)

وهي تشابه مصطلح (Sophomore) المستعمل في الجامعات الاميركية والذي يقرب بمستوى علمي اشبه ما يكون بالسنة الجامعية الثانية).

وفي هذه المرحلة يدرس الطالب علم اصول الفقه، والفقه، ويتضمن الاول طرق استنباط الادلة، من المصادر الاصلية (الشرعية)، اما الثاني فيشمل قواعد، واحكام الدين المختصة بالعبادات (كالطهارة، الصلاة، الصوم، اداء الزكاة)، وبالمعاملات (كالمحاضر التجارية، الزواج، الميراث، وما شابه ذلك).

والكتب التي تدرّس علم الاصول هي (المعالم)، (القوانين) (الرسائل)، (الكفاية). وعندما يتجاوز الطالب هذه المناهج بنجاح يتحول من المرحلة البسيطة الى مرحلة اكثر تعقيداً.

اما الكتب الفقهية فهي (التبصرة)، (الشرائع)، (اللمعة)، (المكاسب)، (العروة الوثقى) وهنا ايضاً تتصاعد الكتب في تعقيداتها، واصطلاحاتها، العلمية والتقنية.

وبعد هذه المرحلة المتوسطة يبلغ الطالب المرحلة الدراسية الثالثة، والتي تسمى:

مرحلة البحث الخارج

وفيها يحضر الطلاب (الدروس) التي تلقى في محاضرات عامة من قبل (المجتهدين) وتتضمن تحليلات اختصاصية عالية جداً في مجال دراسة الادلة، واستكشافها. ومن بين (المجتهدين) المشهورين الذين يقررون مثل هذه البحوث السيد محسن الحكيم^(١)، والسيد حسين الحماي^(٢)، والسيد ابو القاسم الخوئي^(٣).

(١) توفي السيد الحكيم سنة (١٩٧٠م). (٢) توفي سنة (١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م) وخلفه ولده السيد محمد علي الحماي. (٣) توفي عام (١٩٩٢م) بعد عقدين من زعامته للمرجعية الدينية.

الدكتور فاضل الجمالي ١٠٩

وقد حضرت قليلاً من تلك الدروس في شهر كانون الاول سنة ١٩٥٧م، وقد كانت محاضرة الخوئي مساءً في مسجد (الخضرة) تحوي ما يقارب (١٥٠) طالباً، كلهم قد (تربعوا) على الأرض. ولم تكن المحاضرة قد زادت على أكثر من ثلاثين دقيقة، وكان موضوعها حول (مناهج البحث الفقهي). كما حضرت محاضرة للسيد حسين الحماي في مسجد (الهندي)، وكان مجموع الحضور من الطلبة يقارب ١٥٠ طالباً أيضاً. ودار محور المحاضرة حول (نية) الفرد، وقصده فيما يخص الصلاة، وتركزت المحاضرة على تحليل معنى (النية)، وصلتها بفعل الصلاة، وتضمنت المناقشات معالجات نافعة لمباحث علم النفس.

والمحاضرة الاخرى التي حضرتها هي محاضرة آية الله السيد محسن الحكيم في مسجد (الطوسي)، والتي تناولت بالبحث (عقد قران العبيد، وعلاقته بموافقة مالكيهم).

ان هذه المرحلة لا تخضع للزمن المحدد، وربما يستمر الطالب فيها حتى نهاية عمره، وان غاية العلماء الكبار هي الوصول الى المرحلة العالية للاجتهد، والتي يمكن ان تتصور بانها تماثل درجة (الدكتوراه) في العلوم العقلية الدينية، عندها يمتلك (المجتهد) القدرة على استنباط الاحكام الشرعية المستندة على تمكنه من علم اصول الفقه، وفحص الآراء، والادلة ونصوص القرآن والسنة في المسائل الدينية، وان مرحلة (الاجتهاد) لا تحصل بالدراسة وحدها، ولكن بنفاذ البصيرة التي هي في حد ذاتها منحة الهية. فالتعلم لا يقاس بزخم المعلومات الهائلة، ولكن بالنور الذي يقذفه الله في قلوب العارفين من العلماء.

ويتبع الشيعي في شؤون حياته اليومية تعاليم (المجتهد) ويسمى (المقلد). أما العالم الذي يصل الى مرحلة (الاجتهاد) والذي لم يكن باستطاعته النهوض بالقيادة (المرجعية) فانه يبقى معلقاً بين مرحلتي (الاجتهاد) و(التقليد) ويسمى (محتاطاً).

وهناك الكثير منهم في النجف يمكن ان يظهر اجتهادهم لعامة الناس يوماً ما . وفي (النجف) عدد من كبار المجتهدين، بعضهم على درجة عالية من الثقافة، وبعضهم الآخر ممن يفتخر به العالم الشيعي، ويقوم بعض هؤلاء (المجتهدين) بالواجبات العامة تجاه شؤون الناس الاجتماعية في حين ان بعضهم الآخر قد قصر نفسه على النشاطات العلمية وحدها.

وقد زرت مؤخراً عدداً من المدارس، وتحدثت مع الطلبة حول دراستهم، ومعيشتهم، وعن اوطانهم ايضاً. وسألت احد الطلبة وهو الشيخ محمد رضا شمس الدين^(١) ان يوضح لي منهاجه اليومي، وقد ذكر لي انه ينهض صباحاً قبل طلوع الشمس بنصف ساعة ليؤدي صلاة (الفجر)، وبعد شروق الشمس يحضر بحث (الخارج) على يد السيد ابو القاسم الخوئي في (الفقه). وبعدها يتجه الى تدريس (البلاغة)، والفلسفة الاسلامية في كتاب يسمى (شرح الباب الحادي عشر) للمقداد السيوري، عندها يحضر درساً فقهياً آخر في بحث (الخارج) للشيخ عباس الرميثي^(٢) يعالج جانباً من شرح كتاب شهير هو كتاب (الشرائع) ثم تأتي المحاضرة الثالثة لبحث (الخارج) في مباحث (الزكاة) من نفس المصدر. ثم يستمر بالحضور على يد السيد علي الفاني الاصفهاني^(٣) في محاضرات البحث (الخارج) الاخرى.

وهو مع كل ذلك كان عليه ان يستعد للدراسة، والتحضير بنفسه والا يتخلف عن مواعيد الصلوات، وما يحتاجه لشؤون حياته الخاصة.

(١) توفي الشيخ محمد رضا شمس الدين سنة ١٩٥٧م اي بعد شهور قليلة من هذا الحوار بعدما انهدم سقف السرداب عليه، وهو بعد لم يتجاوز الثلاثين من عمره. له بحوث منشورة منها (حديث الجامعة النجفية) و(العلويون في سوريا) وغيرها.

(٢) توفي عام (١٩٥٩م).

(٣) هو من مواليد (١٩١٤م) اقام في مدينة النجف ثم هاجر منتصف السبعينات الميلادية الى مدينة قم، وبقي مواصلاً عمله العلمي حتى وفاته عام (١٩٨٨م).

وبالتأكيد فان هذا البرنامج هو برنامج مليء بالحياة. وبعبارة اخرى فان الطالب يمكن ان يتعب نفسه اذا رغب، او يتركها وشأنها اذا كان ذلك رائقاً له. وبالنتيجة فلا توجد اي قوة خارجية تجبر الطالب على أداء مهماته سوى ما تمليه رغبته عليه.

اما الطالب المتألق الآخر الذي زرته في مدرسة (القوام) فهو الشيخ علي الكرمي وهو من الطلاب الذين يعيشون مع عوائلهم خارج المدارس. ويحضر هذا الطالب الشاب محاضرات الشيخ حسين الحلبي (١)، ويمتلك قابلية ادبية حسنة، وعقلاً فلسفياً رائعاً. وهو بدوره يقوم بتدريس علوم (البلاغة). اما اخوه فهو عالم شهير (٢)، ومؤلف دراسات في الفلسفة الاسلامية.

ان الميزات الثقافية التي تختص بها (النجف) تندرج بما يلي:

١- لا تخضع الدراسة لاي سلطة خارجية سواء اكانت حكومية ام مجلس ادارة.

٢- ان اي شخص يذهب للاقامة في (النجف) فانه يذهب لغرض تحصيل منفعة، فالتعلم لا يهدف اي دوافع خارجية سوى الصلاح الديني والتقوى، وخدمة الاغراض الالهية. ولهذا فالطالب في (النجف) يجمع بين التقوى وطلب العلم.

٣- تتميز الدراسة في النجف بانها تستند على (القناعة) و(الزهد) ولا صلة للطالب بحياة (الترف) بالرغم من ان جميع الذين التقيت بهم بدوا من الكرماء. فعندما كنت ازور غرف الطلبة كنت ادعى لتناول (الشاي) او (القهوة) او المشروبات الاخرى. وقد ترك طالب (افغاني) - كان يستقبلني - غرفته حالاً عندما اعتذرت له عن تناول المشروبات الخفيفة المتوفرة لديه، وجلب عوضاً عنها (صحناً) مليئاً بالرمان. ان الكرم والمودة - باختصار شديد - يطوقان تلك الاجواء.

(١) من كبار الفقهاء، واساتذة الفقه والاصول، توفي عام (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) عن عمر جاوز الثمانين.

(٢) هو الشيخ محمد ابن الشيخ محمد طه الكرمي الحويزي درس في النجف وقم واقام في عريستان مقام والده، وقد اناف على السبعين.

٤. الدراسة في (النجف) دراسة حرة بكل ما للكلمة من معنى، حيث لا توجد حدود للمناظرات والاستفسارات، فحرية البحث هي القاعدة التي يدور عليها اطار الفكر الاسلامي.

٥. استطاعت الدراسة في (النجف) ان تحل اشكالية تفاوت الافراد حيث يستطيع الطالب الانتقال من مرحلة دراسية الى مرحلة اخرى حسبما تلميه عليه مقدرته، واختياره لنمط المواد التي يرغب بدراستها، ونوعية الكتب او الزملاء وحتى اختيار الاستاذ الذي يرتاح اليه.

ان نمطاً كهذا من انماط التعليم هو لغرض الفائدة، وعدم وجود فترة زمنية محددة للدراسة تجعل الطالب مستمراً في توجهه العلمي دون اي ضغوط، الامر الذي يجعله لا يعاني من مشكلة المناهج المفروضة عليه او مشكلة الساعات المقررة التي يجبر على حضورها.

٦. مشكلة (الامتحان) لا تضايق حياة الطلبة، او اساتذتهم، وتبقى قابلية الطالب، وتمكنه من الاشياء السبيل الوحيد لنجاحه، ونجاح اقرانه ايضاً. وقد كان على احد العراقيين من دارسي العلوم الدينية ان يظهر بعض قدراته العلمية الاولى امام لجنة لمتابعة الدراسة لكي يتخلص من الخدمة العسكرية لكن مثل هذه المقابلة لا تعني انه خضع لامتحان حقق له انجازاً مهماً.

٧. ان تطور الشخصية، والطباع ينمّيان من خلال القدوة الحسنة، والرفقة الطيبة مضافاً الى الالتزام بالتعاليم الدينية. ومع ذلك فقد سمعت بعض الشكاوى التي تشير الى ان بعض الافراد من ذوي الشخصيات الضعيفة والذين يميلون الى حب الذات يكونون في بعض الاحيان في صفوف طلبة الدراسات. وبعبارة ثانية ان الاحتياجات المادية الضرورية اضعفت المقومات التي كان يتمتع بها طلبة العلوم، كما انها حدثت من نفوذ بعض العلماء الذين كانوا متنفذين بشكل كبير.

٨. ومن الميزات المهمة للدراسة في (النجف) انها دراسة تامة، فالموضوع الواحد

الدكتور فاضل الجمالي ١١٣
يُدرّس، ويعاد تدريسه في كتب متعاقبة. وبالتأكيد فإن هذه الطريقة ستترك تأثيراً
قوياً على الطالب. وعلاوة على ذلك فإن الطالب يُدرّس ما كان قد درسه أكثر
فاكثر. وان تجربتي الخاصة تدفعني للاعتقاد انه لا توجد طريقة للتخصص في
الموضوع افضل من تدريسه.

وبالرغم من كل تلك الميزات فهناك بعض المشكلات التي تخص النظام الدراسي
في جامعات (النجف) يمكن اجمالها بما يلي:

أولاً: (مشكلة المناهج الدراسية)

ان مناهج الثقافة ترجع الى ثقافة العصور الوسطى القديمة، وان علماء (النجف)
وان كانوا يمتلكون مداخل اولية للتفكير المتجدد، والعلوم الحديثة، والفلسفة
العصرية، وعلم النفس الحديث، وحتى في المجال الصحي، الا ان ذلك لم يكن كافياً
حيث يلاحظ ان بعض المدارس لا تزال تحتوي على (حوض) ماء يستعمل لجميع
اغراض الغسيل المشتركة مما يسبب تلوثاً عملياً.

وقد اجريت محادثات كثيرة مع العلماء، والمجتهدين الكبار حول حاجة تقديم
مواضيع دراسية جديدة كالفلسفة الحديثة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع وبعض
العلوم الطبيعية المبسطة، وشيء من العناية الصحية. وكانت الاستجابة غير
ايجابية. واتذكر حديثاً جرى بيني وبين استاذ في الفلسفة الاسلامية حول فلسفة
هنري برجسون (Henri Bergson) وقد وجدته غير ملّم بهذا الاسم.

من هنا فان النتاج العلمي للنجف لم يحقق نجاحاً في مواجهة التحدي الروحي
للعوالم الحديثة، مما يجعل هذه الملاحظة من الملاحظات الجادة في هذا المضمار.

ثانياً: (مشكلة الاجازات العلمية)

والملاحظة الثانية تتعلق (بأجازة) الطلبة حيث - كما قلت - ان عدم الامتحان، وعدم الرقابة على حضور الطلاب يجعل كل شيء يعمل بحرية تامة. ولكن في الوقت نفسه لا يمكن للمرء ان يتجنب لقاء اولئك الطلبة الذين يغادرون (النجف) لا عن (كفاءة)، ويدعون انهم مؤهلون للمهام الدينية في المناطق التي يذهبون اليها، ويترك الامر للناس حيث يمكن اكتشاف ما اذا كان رجل الدين مؤهلاً، ام لم يكن كذلك. وبالتأكيد فأن النزاهة، وأريحية الشخص ربما تكونان بديلاً في المهمات الاجتماعية عن المستوى العلمي المطلوب. ولا شك ان العالم اذا كان (مجازاً) ومعتزلاً له ببلوغ الدرجة العلمية المطلوبة فان استفادة الناس منه ستكون بشكل افضل.

ثالثاً: (مشكلة الاحتياجات المادية)

حيث - كما لاحظنا - انه لا توجد مصادر عالية محددة، ولا دخل ثابت، وانما يتأرجح ذلك حسبما تلميه الظروف المحيطة بهم، الامر الذي يجعل حياة الطالب موضوعاً للضنك المادي المحاط بالمخاوف. كما ان الظروف المادية ربما لم تكن كافية بالمقدار الصحيح لطعام الطالب او اكسائه، او توفير بعض المستلزمات التي يحتاجها للنفقة.

وبالختام فان (النجف) تواجه نفس الصعوبات التي يواجهها العالم الشيعي بشكل عام. فهل ان العالم الشيعي ماض لتغيير حياته الدينية نحو التجديد، والادارة الاكثر تنظيماً؟! وهل سيغير قياداته الدينية الى قيادات مسؤولة وعصرية، ام ستبقى الحياة الدينية بعيدة عن احتياجات الناس ومتطلباتهم، وتفكيرهم؟!

ما اتصوره: ان قادة (الشيعية) بالتعاون مع قيادات المذاهب الاسلامية الاخرى

عليهم ان يوحّدوا جهودهم لاحتلال الحياة الروحية في المجتمع المسلم، وجعلها تتلائم مع متطلبات العالم المتّمدّن لكي يسود التفاهم، والتسامح، والأخاء الشعوب الاسلامية، وغيرها من الشعوب الاخرى المتراامية في انحاء العالم*.

* * * *

* تناولت هذه المقالة الوضع السائد في النجف في مرحلة ما قبل الستينات الميلادية، وعلى القارىء ألا يدمج بين المرحلتين. فالتطور الفكري، ومواكبة الدراسات العصرية، والتطور العمراني للمدارس العلمية كل ذلك يمثل مرحلة ما بعد الستينات، وهي المرحلة التي لم يتناولها المقال بالحديث. ان مرحلة ما بعد الستينات لها تاريخها المستقل الشامل لاحداث فكرية كبيرة تمثلت بالمواقف السياسية للامام السيد محسن الحكيم وبأطروحات الامام السيد محمد باقر الصدر الفكرية المتميزة، وأحداث سياسية متشعبة انتهت بقتله قتلة مأساوية على يد السلطة الحاكمة في العراق عام ١٩٨٠م.